من ذكريات القرية

بقلم الآنسة ابنة الشاطئ

" فى هذا المقال القيّم ، تجلو الآنسة ابنة الشاطئ صورة رائعة من حياة الريف ، وتعرض بعض ذكريات مؤثرة تهز النفوس وتبعث فيها الحنين إلى القرية وساكنيها ، ثم تلتفت الآنسة إلى ضجيج المدينة وطغيان المادة عليها ، فتهتف بأبناء القرية أن يعودوا إليها ليستردوا بعض النعيم الروحى والسعادة الفطرية . "

المحرر

هذا حديث أكتبه فى ليلة من ليالى الشتاء بالقاهرة ، ونفسى تفيض بالحنين إلى ليال طيبة حلوة أمضيناها فى الريف حول المدفأة ؛ نلتمس الحرارة والدفء ، ونطيل الحديث والسمر ، حتى يثقل النوم أجفاننا فنحج إلى وادى الأحلام .

ولم تكن مدافئنا أنيقة غالية توقد بالفحم الحجرى ، وإنما هى بضعة أحطاب خشبية ، وقليل من أعواد الذرة الجافة ، تشعل فى مواقد متواضعة رخيصة من النحاس الأحمر أو الفخار الرخيص ، وتترك حينا فى فناء الدار حتى يهدأ لهبها وتطمئن الجمرات فيها . كانت مواقد رخيصة متواضعة ، ولكنها مع ذلك عزيزة دليلة أثيرة عندنا ، قد شهدت أحلى ليالينا وأنشجاها ، واستقرت عليها نظرات الحالمين والذاهلين الشاردين ، وعكست ضحكات السعداء الخليين ، وأنصتت إلى قصص السمار ومتاعب الرجال وأحلام الشباب وهذر الصبية الصغار .

كان المساء يلم بنا مبكرا فى الشتاء ، فنصمد لبرده القاسى ويمضى كل منا فى عمله متجلدا نافد الصبر ، حتى إذا ارتفع لهب الموقد فى فناء الدار وانتهت إلى أنوفنا رائحة الدخان أسرعنا إلى النار نلبى نداءها ، وأحطنا بها فى شىء من التزاحم الرفيق ، ومددنا إليها الأكف نلتمس عندها الدفء لأجسامنا المقرورة المرتعشة ، والهدوء لأعصابنا المكدودة المتعبة .

هناك فى ذلك الجو الدافئ الفاتر ، كنا نحيط بالموقد فنحس نوعا غريبا من القرب والتآلف ، يربط بيننا جميعا حتى لنصبح قلبا واحدا يخفق فى هذه الأطياف الساهرة التى انحنت على النار فى هدوء واطمئنان ! يشكو أحدنا فيصغى الآخرون إلى شكواه فى عطف

ومواساة ، ويتكلم فينصت له الباقون فى رعاية واهتمام ، وقد يشرد أحدنا فيمضى فى وادى الأحلام ويحدثنا ذاهلا عن آماله الطوال العراض فنبتسم له فى رفق وإعزاز ، ونأبى أن نوقظه من أحلامه الحلوة لنرده إلى واقع الحياة .

هناك . . فى ذلك الجو الهادئ الكريم ، كانت أرواحنا تأتلف وقلوبنا تتقارب وخواطرنا تلتقى ، فتشيع فينا عاطفة فياضة من الحب والحنان ، تنسى معها متاعب الدنيا وأثقال الحياة .

كان ذلك فى الأمس البعيد .

واليوم ؟ اليوم يمضى بنا الشتاء فى المدينة فلا نار ولا سمر ، يشرد النوم عن عيوننا فيحتال عليه بعضنا بالإسراف فى اللهو ويحتال عليه آخرون بالإسراف فى العمل ، ويناوش البرد أطرافنا فنحتال عليها بقرب من المياه الساخنة نقذف بها بين الأغطية فتدفئ أجسامنا ولكنها لاتدفئ أرواحنا الظامئة المقرورة .

تشتت الشمل ، فلا نار ولا سمر ... تعطلت المواقد وأخمدت النيران التى كانت تجذب أبناء الأسرة الواحدة ، وتمنحهم بركة الحب العائلى ونعيم الدفء والحنان .

تشتت الشمل ، وتفرق أبناء البيت الواحد هنا وهناك ، محرومين من المتاع الروحى ، لأن البيوت هنا فى المدينة يعوزها الحب والدفء والحنان .

يأتى المساء فلا يهرع الناس إلى بيوتهم يقرون ويصطلون ، وإنما يتشردون فى شتى النواحى ومختلف الجهات . هؤلاء هم الرجال يعمرون النوادى والمقاهى . وهؤلاء هن النساء ، نرى بعضهن قد انطوين على أحزانهن فى البيوت يعانين آلام الوحدة الموحشة ، ونرى أخريات قد غادرن بيوتهن وملأن الملاهى والطرقات ، فإذا أوغل الليل وأدرك التعب هؤلاء وأولئك ، آووا إلى البيوت كما يأوى إلى الفندق مسافر أو عابر سبيل .

وتمضى الأيام ، وأفراد البيت الواحد لا يلتقون ولا يتقابلون ! ثم لا يزال أمرهم هكذا حتى تحل الرابطة المقدسة التى تربطهم جميعا وهى رابطة الحب العائلى ، فيصبح الزوج غريبا على زوجه ، والأب غريبا على ابنه ، والأخ بعيدا عن أخيه .

عندئذ لا يصبح البيت مأوى هادئا يلقى الإنسان فيه أهله وعشيرته ، ويريح فيه الروح والجسد ، ويجدد فيه العزم والنشاط ، ويلتمس عنده الحب والحنان ، وإنما يصبح البيت فندقا ينزل فيه قوم غرباء ، يأوى إليه الرجل ساعة الظهيرة وبعض ساعات الليل ، ليأكل ويلبس وينام ! وتلك مطالب مادية تافهة بجانب المعنى الأسمى للبيت ، مطالب تقوم الفنادق بتهيئتها لنزلائها على أدق وجه وأتم نظام ، فإن لم يكن للبيت إلا هذا المعنى المادى فما أخيب الرجاء !

إن فضيلة البيت تبدو فيما يشيعه فى النفس من راحة وسكون ، وما يهيئه للفرد من حب وأنس واطمئنان ، فإن أعوزه ذلك تساوى البيت والفندق ، وقد يمتاز الثانى بما فيه من الأناقة والنظام !

هنا تدركون لماذا فشلت أكثر البيوت عندنا فى اجتذاب أبنائها فنفروا عنها ضالين مشردين يلتمسون اللهو والتسلية بعيدا عنها ، ثم يأوون إليها للنوم والطعام .

أيكم يشعر الآن نحو بيته — وفيه ما فيه من نعيم مادى — بما يشعر به ذلك الطير الذى ينزع إلى وكره الذى درج فيه ، فلا يزال يلتمس الطريق إليه كلما ألم به الليل وأحاط به الظلام لا يرضى عنه بديلا ولا يعدل به أى نعيم ؟

أيكم يشعر الآن نحو بيته بما يشعر به الأعرابى حين يهبط حواضر المدن فلا يصرفه جمالها عن ذكرى بيته ، وما بيته إلا خيمة ضئيلة بين صخور تسفعها الهاجرة ، ورمال تغلى الدم وتصهر العظم .

أيكم يقف على بيت له قديم ، وما أكثر البيوت المهجورة فى مصر ، فيهزه الحنين إلى ماضيه ، ويهيج فيه الشجن لذكرى الأيام الخوالى والأمس البعيد ، ويقف تلك الوقفة الحزينة التى كان العرب البداة يقفونها أمام أحجار ضئيلة هى كل ما بقى من أطلال ماضيهم البعيد ،

لقد كان الواحد منهم يقف بالطال ، فيهتز ويبكى حتى ليكاد يُبكى الطلل وهو جماد !

وقف زهير على أطلال داره بعد عشرين عاما ، وقف يذكر ماضيه ، ويسكب عندها دمعة كبيرة حارت فى مقلتيه طويلا ولم يخففها الزمن فى عشرين عاما .

ووقف النابغة الشيخ أمام أطلال لدار نعم ، يحييها ويسألها عن فتاته الحبيبة ويتوسل إليها أن تعيد إلى سمعه ما وعته من أخبارها فى لياليها الخوالى ، فاستعجمت دار نعم لا تكلمه ، ومضى الشيخ عنها ذاهلا محزونا !

ونحن الذين نزعم أن المدنية هذبتنا وصقلت حواشينا ورققت عواطفنا ، نحن الذين قد نأنف من خشونة العرب البداة وجفوة الفلاحين الغلاظ ، نحن نمر اليوم بربوع أقمنا فيها زمنا وأمضينا فيها أياما وليالى من ماضينا وهو قطعة منا ، نمر بهذه الربوع فلا تهزنا ذكرى ولا يشجينا الحنين ، وإنما نتجاوزها عابرين مسرعين ، لا نحيى فيها ماضينا ولا يهفو بنا الشوق إلى الأمس البعيد .

فيم هذا الجمود ؟

لا شىء إلا أن أكثرنا لم يستمتع بالحب العائلى بين هذه الربوع ! كان يقيم فيها كما يقيم عابر السبيل فى أحد الفنادق ، ثم يغادره فى الصباح فلا يعوده منه ذكر ولا يعاوده إليه حنين !

ثم قست القلوب من بعد ذلك فأثقلتها المادة ، فلم تعد تحس حنينا إلى الحنان والدف المنزلى ، ولم يعد يعنيها من دنيا الناس إلا المطالب المادية ، أما النعيم الروحى فقد أسقطته من حسابها فهو عندها شيء تافه يشبه خيال الشعراء وأوهام الحالمين .

وغدا أو بعد غد ، تدركنا الوثنية المادية فنقدس القرش ، ويصبح الرغيف وحده هو السيد المتحكم فى علاقتنا بالناس ، ووراء ذلك يهون المتاع الروحى والسمو النفسى وكل شيء !

كلا أيها الناس !

يجب أن نحارب هذه الأوضاع الكاذبة ليسلم لنا جمال النفس ونعيم الروح .

يجب أن تردّوا إلى البيت مكانته الأولى ، لكى يعود إليه أبناؤه المشردون ، فيجدوا الراحة والحب والاطمئنان ، ويضعوا عن كواهلهم أثقال الدنيا ومتاعب الحياة ، ليعودوا إلى الحياة بقوة جديدة وعزم جديد !

لقد جاء فصل الشتاء ، فهيئوا جلسات السمر البريئة حول المدفأة ، وأوقدوا النار فى البيوت ، فقد أفلحت النار من قديم فى اجتذاب الضالين المشردين ، ومنحتهم نعمة الاطمئنان والاستقرار .

أوقدوا النار لكى تدعو أبناء البيت وتجمعهم فى مكان واحد بعد أن فرقت بينهم أكاذيب المادة وأوضاع الحياة ، تجمعهم فى جو هادئ يخدر الأعصاب ويدفئ الروح ويغرى بالألفة والوداد .

هكذا كان العرب البداة يفعلون حين تهزهم نخوة الكرم ، أو يلح عليهم الحنين إلى الدفء والسمر ؛ هذا سيدنا موسى عليه السلام " آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . "

وهذا حاتم ، فتى طيء ، كان إذا أظلم الليل يقيم غلاما له يوقد النار باليفاع لتدعو الذين استبد بهم الجوع أو هفا بهم الشوق إلى الدفء والسمر فإذا تباطأ الغلام هتف به حاتم :

أوقد فإن الليل ليل قمر ... والريح يا غلام ريح صر

علّ يرى نارك من يمر ... إن جلبت ضيفا فأنت حر

وهذا هو عدى بن زيد العبادى ، كان إذا ألح عليه السهد هتف بفتاته :

يا لبينى أو قدى النارا ... إن من تهوين قد حارا
رب نار بت أرمقها ... تقضم الهندى والغارا

وأنا الأخرى أهتف بكم أن توقدوا النار حتى إذا آنسها المتعبون المشردون فى جوانب الوادى ، هفوا إليها من بعيد ، واتجهوا إليها يلتمسون عندها الدفء والاطمئنان .

أوقدوا النار لتدعو المسهدين الذين ألح عليهم السهاد ، والمتعبين الذين أثقلتهم تكاليف العيش فى دنيا الناس ، والمحرومين الذين يشجيهم الظمأ إلى الدفء والسمر .

فإذا التهبت الجمرات الحمر فى المواقد ، وانحدر ندأوها فى ليالى الشتاء القاسية المظلمة ، أصغى إليها المقرورون والمشردون ثم خفوا اليها سراعا يلبون النداء .

بنت الشاطئ

— قلوب الرجال وحشية فمن تألفها أقبلت عليه .

— أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة .

— لا تستح من إعطاء القليل فالحرمان أقل منه .

— العفاف زينة الفقر .

— من نصب نفسه للناس إماما فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليؤدبهم بسيرته قبل أن يؤدبهم بلسانه . ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم.

على بن أبى طالب